الفصل الأول
دراسة موجزة عن عصره رضي الله عنه

لقد كانت جزيرة العرب، والعالم بأسره قبل بعثةِ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تعيش فترةً من الجاهلية، فقد انقطع وحي السماء فترةً طويلةً عن الأرض، وغابت هداية الله لخلقه، ولم يبقَ إلاَّ بقايا مشوهة محرَّفة من اليهودية والنصرانية، وكان في جزيرة العرب أفراد معدودون يتحنَّفون على ما ورثوه من بقايا دينِ إبراهيم التي لا تُغني، ولا تهدي.

وكانت مكةُ قبلةَ العرب قبل الإسلام تحجُّ قبائل العرب إلى بيتها المعظم، وتقدِّسه، وتقامُ حولها الأسواق التجارية والأدبية، ولذلك سمَّاها تعالى أمَّ القُرى، إشارةً إلى منزلتها بين القبائل العربية، وهذا ما شجَّع القُرَشيين على التجارة فكانوا تُجَّار العرب، وكانت لهم رحلتا الشتاء والصيف يرحلون فيهما بين اليمن والشام فيتبادلون البضائع، ويربحون الأموال الكثيرة، وكانوا يَفِدونَ على ملوك الروم والفُرس، وأمراء الغساسنة والمناذرة، ولا شك أنهم في أثناء رحلاتهم هذه يُحصِّلون المعارف العديدة، ويكتسبون الخبرات الكثيرة.

ثمَّ أَذِنَ الله تعالى ببزوغ فجر الهداية، وبعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أشرف بيوت مكة، وأوسطها، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم يدعو إلى هذا الدين الحنيف أهله وأصدقاءه، وبدأت خيوط هذا الفجر تتسرب عبر الظلام البهيم، ولكنَّ أتباع الشيطان، وخفافيش الظلام لم يعجبهم هذا النور الذي شعروا أنه سوف يَدكُّ حصون الظلم والبغي التي تحصنوا فيها، وسوف يُحَطِّمُ عروشَ الجهل والجاهلية التي اعتلوها، فجعلوا يكيدون للإسلام ورسوله وأتباعه صنوفَ الإيذاء، والتعذيب، من جَلدٍ، وتجويعٍ، ومصادرة أموالٍ، وقتلٍ، واستهزاءٍ، وافتراء... مِمَّا جعلَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فِراراً بحياتهم ودينهم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعرضُ دينه على الوفود التي تقدم مكة في مواسم الحج والتجارة، ويطلب منهم الإيمان به، أو حمايته حتى يُبَلِّغَ دينه، فمنهم من يَرُدُّه رداً جميلاً ومنهم من يؤذيه ويستهزئ به.

وكان اليهود في يثرب يستفتحون على جيرانهم العرب من الأوس والخزرج، ويقولون لهم: قد أوشك زمانُ آخر الأنبياء، وسوف نؤمن به، ونقتُلكم معه قتلَ عادٍ وإرَم.

وصادفَ أن اجتمع صلى الله عليه وآله وسلم برجالٍ من الأوس والخزرج في أحدِ مواسم العرب، وعَرَض نفسه ودينه عليهم، فَعَرفُوه، وأدركوا أنه النبي المنتظر، وآمنوا به، ثم واعدوه في العام القادم، وذهبوا إلى قومهم دعاةً إلى هذا الدين الجديد، وعادوا إليه في الموعد المضروب أكثر من سبعين رجلاً

وامرأة فبايعوه على إيوائه وأصحابه، ونصرته ونصرة دينه حتى يُظهِرَهُ الله، وجعل عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اثني عشر نقيباً، وأرسل معهم مصعب بن عُمير رضي الله عنه ليهيِّئ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُهَاجَرَهُ، وبدأ الإسلام ينتشر في يثرب، وبدأ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهاجرون فُرادى وجماعاتٍ حتى أشرق نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنورة، ودخلها مع أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه بعد اثني عشر عاماً من بعثته صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان أولَ ما فعله صلى الله عليه وآله وسلم بعد استقراره في المدينة تأسيسُ أولِ مسجدٍ في الإسلام، ثم آخى بين الأنصار والمهاجرين أخوةً لم يُسَجِّل التاريخ الإنساني في رحلته الطويلة شبيهاً لها، ضرب الأنصار فيها أروع أمثلةِ البذل، والإيثار، والتضحية.

وبدأ الإسلام يواجه تحدّيات خطيرة، وتآمراً على دولته الفتية من الداخل والخارج، فقد تحالف اليهود والمنافقون في المدينة مع مشركي مكة والعرب، وجعلوا يكيدون للمسلمين حروباً وفتناً الخفي منها أكثر من الظاهر.

وخاض النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلسلةً من الغزوات والمعارك مع هذه الأطراف مجتمعة أو متفرقة، بدأت بمعركة بدرٍ في السنة الثانية للهجرة وانتهت بغزوة حنين وما تبعها في السنة الثامنة للهجرة.

وكان الله قد أذنَ قبل ذلك بفتح مكة في السنة الثامنة، ثمَّ توالت وفود القبائل المُسلِمَةِ والمؤمنة، وانتشر الإسلام في أقاصي جزيرة العرب، وبعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الرسائل إلى أمراء العرب، والملوك الذين حوله يدعوهم إلى دين الله الحنيف، ولم يُتَوَفَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاَّ وطلائع جيشه متجهة إلى أطراف الجزيرة ومشارف الشام.

وتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة الحادية عشرة للهجرة، وقد أدى الأمانة، وبلَّغ الرسالة، ونصح الأمة، ولم يستخلف صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين بعدَه أحداً، وترك أمْرَهم شورى بينهم، وكان أمرُ المسلمين قد اضطرب بعد وفاة نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، وانشغل بنو هاشم في تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخشي الأنصار إن تولتْ قريشٌ الأمرَ أن تدفعهم حميتهم إلى الانتقام من الأنصار وقد قتلوا منهم الكثير خلال معاركهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وأرادوا أن يبايعوا سيد الخزرج سعدَ بن عبادة أميراً على المسلمين، وبلغ خبر هذا الاجتماع أبا بكرٍ رضي الله عنه؛ فسارع إليهم معه عمر وأبو عبيدة، ودار بينهم نقاش طويل ثمَّ استقر الأمر على بيعة أبي بكرٍ رضي الله عنه، فكان خير خَلَفٍ لخير سلف، وكانت العرب قد اضطربت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فارتدَّ بعضهم، وامتنع آخرون عن تأدية الزكاة المفروضة عليهم، وشاور أبو بكر

رضي الله عنه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستَقَرَّ رأيه على قتالهم، فأرسل إليهم الجيوش، وسيَّر جيشَ أسامة الذي جَهَّزه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الشام، وكانت فترة خلافة أبي بكر رضي الله عنه عصيبةً عصم الله فيها المسلمين من كثيرٍ من الأمور التي ربما كانت قضت على دولة الإسلام في مهدها.

وخشي أبو بكرٍ على الأمة من بعده أن يصيبها ما أصابها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن تختلف على أمر الخلافة، فشاور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيمن يَخلُفُهُ منهم، ثمَّ استقر أمره على عمرَ رضي الله عنه، وأوصاهم به، وأوصاه بهم.

وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه من أصدقِ الناس فراسة، فكان عمرُ عند ظنِّ أبي بكر ومستشاريه، وساسَ الأمة عشر سنوات كان فيها مثالَ العدلِ، والبرِّ بالرعية، والاهتمام بشؤونها، ووجَّهَ رضي الله عنه الجيوش شرقاً وغرباً وهزم أعظم دولتين عرفهما التاريخ القديم دولتي الروم والفرس – وفاض الخير في زمنه على المسلمين، وكان رضي الله عنه المؤسس الفعلي لنظام الدولة الإسلامية، ولكن المتآمرين على الإسلام ودولته غاظهم أمرُ عمرَ وانتشار الإسلام في عهده انتشار النور في الظلام، فَدَبَّروا مؤامرة لاغتياله كان رأسها أبو لؤلؤة المجوسي، وانتهت بقتل عمرَ رضي الله عنه، وتورَّع عمرُ أن يُسمِّ خليفةً للمسلمين من بعده، وخشي عليهم ما خشيه أبو بكرٍ من التفرُّقِ

والاختلاف فعهد بالأمر إلى لجنة سداسية سُميت لجنة الشورى، واختار لها كبار أصحاب النبي الذين توفي صلى الله عليه وآله وسلم وهو راضٍ عنهم، ثمَّ استقر أمر هؤلاء الستة على ثلاثة منهم، وهم: عليٌّ، وعثمان، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم، واتفقوا على جعل أمرهم إلى عبد الرحمن رضي الله عنه، فتشاور معهما، ومع من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ، ثمَّ اختار عثمان رضي الله عنه، فبايعه، ثمَّ بايعه عليٌّ والمسلمون من بعده.

وكان عثمان رضي الله عنه كريمَ الخُلقُ، لطيف المعشر، براً بأهله، وكان لبني أمية – أسرة عثمان– أطماع قديمةٌ، فاستغلوا قربهم منه، وإيثاره لهم، وأفسدوا ما أفسدوا، واستغل أصحاب الأغراض ما بدر من ولاة عثمان ومن أقاربه من أخطاء، وكَبَّروها، وأذاعوها، وحرَّضوا الناس وجمعوهم ثمَّ جاؤوا بهم إلى المدينة، وحاصروا عثمان رضي الله عنه، وفاوضوه على أمورٍ فأعطاهم ما يريدون، ثمَّ رحلوا باتجاه ديارهم وما لبثوا أن عادوا وفق خطة مدبرة مسبقاً، وقتلوا عثمان رضي الله عنه .وقد رفض عثمان ما عرضه عليه معاوية من توجيه جيش من الشام إلى المدينة، أو اللحوق به في الشام، أو ماعرضه عليه الصحابة وأبناؤهم في المدينة من الدفاع عنه في داره، واختار أن يلقى الله ولم ترق قطرة دمٍ بسببه رضي الله عنه.

وكان عثمان رضي الله عنه قِفل الفتنة،فما إن قُتِلَ رضي الله عنه حتى اضطرب أمر المسلمين، وعاثَ المفسدون في المدينة، ثمَّ أجبروا علياً كرَّم الله وجهه على

قبول الخلافة، وأجبروا الصحابة على بيعته، ولكنَّ الصحابة الكرام شعروا أن تدخل هؤلاء الغوغاء في أمور المسلمين الخطيرة، وتحكمهم في قراراتهم أمرٌ له نتائج وخيمة، وإذا لم يحسم هذا الأمر من بدايته، فإن ذلك سوف يتكرر، ولذلك رفضوا مبايعة علي في البداية، ثم طالبوه بعد البيعة أن يقتص من قتلة عثمان، ولكن المشكلة كانت في كثرتهم، وغلبتهم على المدينة، وتوزع جيوش المسلمين في الآفاق. وهذا أدى إلى تعذر القِصاص منهم، ولكن أصحاب المصالح والأغراض أوهموهم غير ذلك، وكان على رأس المطالبين بدم عثمان طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، وهكذا سار هؤلاء بجيش إلى الكوفة والبصرة يحرضون أهلهما على محاربة أهل الفتنة وقتلة عثمان، واستطاع علي رضي الله عنه محاورتهم وإقناعهم بالعودة إلى المدينة وترك إشعال نار الفتنة، ولكن قتلة عثمان شعروا أنَّ في اجتماع كلمة الطرفين وتوحدهم خطر عليهم فعملوا على قدح شرر المعركة بينهما، وبيَّتوا الطرفين ثم أطلقوا عليهما السهام، فظنَّ كل طرف أن الآخرين مكروا بهم، وهاجموهم بغفلة منهم، وكانت معركة الجمل، التي قتل فيها كثير من الصحابة ومنهم طلحة والزبير، وهكذا جرت الحرب دون إرادة من كلا الطرفين وغلبا على أمرهما.

وكان علي قد بدأ خلافته بعزله لولاة عثمان، مما أثار غضب معاوية بن أبي سفيان، وقد كان والي الشام لعثمان ولعمر من قبله، ولذلك لم يعترف

معاوية بالبيعة التي تمت لعلي، وألَّب الناس ودعاهم إلى الثأر لعثمان وهو ابن عمه ووليه، ثم كان ما كان من اقتتال جيشي معاوية وعلي في صفين، وكانت الغلبة في أول الأمر لجيش علي، ولكن خدعة ذكية من عمرو بن العاص – وهي رفع المصحف، والدعوة إلى تحكيم كتاب الله – فرَّقت شمل جيش علي وجعلته ينقسم إلى قسمين: قسم يدعو إلى تحكيم كتاب الله وإيقاف القتال، وقسم أدرك أن هذا الأمر خدعة وأراد المضي في القتال، واضطر علي إلى قبول التحكيم، كما أجبرَ على اختيار أبي موسى الأشعري مفاوضاً عنه، واستطاع عمرو بن العاص المفاوض عن معاوية أن يخدع أبا موسى ويستغل الأمر لتأييد معاوية وتثبيت دعواه في أنه أحق بالخلافة من علي رضي الله عنهم جميعاً، وهكذا دَبَّ الوهن والتمزق في صفوف جيش علي.

ثم بيَّت الخارجون عن علي مؤامرة لقتل علي ومعاوية وعَمراً ظناً منهم أن ذلك ينهي هذه الفتنة ويوحد كلمة المسلمين،فنجا معاوية وعمرو من القتل، واستطاع ابن ملجم أن يقتل علياً رضي الله عنه.

وبقتل علي قويت شوكة معاوية، ورأى الحسن بن علي خيانة أصحاب أبيه له ولأبيه، ورأى أن في الصلح جمعاً لكلمة المسلمين ودفناً للخلافات والخصومات، فمال رضي الله عنه إلى الصلح، وصالح معاوية على شروط منها أن يجعل ولاية العهد بعده إلى الحسن بن علي.

وكان ذلك سنة (٤١) للهجرة، فسمي ذلك العام عام الجماعة.

وبهذا استتب الأمر لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولبني أمية من بعده.

obeikandl.com